الشباب الخالد

توطئة دراسات في الأدب والنقد

للأستاذ جورج سلستي

ليس شباب العمر ما أعنى ، وعمر الشباب كعمر الورود سرعان ما تبلوه الحياة بالأعاصير فيذوى !

ولا الربيع — شباب الطبيعة — وهو ما إن يرود برونقه النضر حتى تصوّحه لافحات الهواجر !

ولا شباب الدول ذوات الحول والطول وهو مهما يطل لابد له آن يدول ! فالخريف كامن في أعقاب هذه جميعاً وإنما ثمة شباب لا يدركه خريف : شباب لا يعروه الهَرَم ولا يدبّ إليه وَهَن الكبير .

شباب غيداني ، أبدى البشر والرواء ، دائم الوضاءة والحسن ، يعدو الزمن العصيب فما يطاوله بحدثانه ، ويدور الدهر الحريب فما يديل من ريعانه !

شباب يزدري بسطوة الفناء ، ويهزأ بعاديات الفناء ، لأنه ينبض أبداً بعضاء القوة وعزة الحياة وزهو الخلود !

شباب شاخت الدول وباد منها ما باد ولم تدل دولته . واندرست جلائل المعالم كما عفت روائع الآثار وهو أبداً رَيّق الصبا يطاول بعزته السماء ويتحدّى بخلوده الأزل !

ذلكم الشباب الوئيد هو شباب الفن الرفيع ، شباب الأدب : يَهرَمُ الكون وهو غضٌّ وتبلى جدّةُ الدهر ، وهو زاهٍ نضيرٌ ، وليس كالأدب ما يتخطى هامات الأجيال بأبهة وجلال ، محتفظاً بسحره الأخاذ وروعته القدسية . وإن العلم ليتبدّل من حال إلى حال ، بل إن من نظرياته ما انقلب رأساً على عقب بتقدم العصر وارتقاء الفكر ، وإن ما كان يحسب فيه حقيقة ثابتة لا مراء فيها في جيل ، نقضه الجيل الذي تلاه . وقد ينقض العلم غداً ما يبرمه العلماء اليوم ، في حين أن نفثات هوراس وهوميروس وفرجيل ودانتي وملتون والمعري وشكسبير وأترابهم من الشعراء والأدباء الأفذاذ لتجد فيها النفوس في اليوم الحاضر ما وجدته من قبل نفوس الأمس البعيد الغابر من متعة ولذة وأنس ، ولسوف تتناقلها الأفواه في مؤتنف الأيام كما كانت تتناقلها الألسن في سالفات الأعوام ، ولسوف يظل يتلو الناس آيات الشعر والأدب ما دام فيهم من تستهويه لفتات الخاطر المشبوب ، ووميضات الذهن المتوقد ، وعذوبة المنطق المسول ، وستنشد أهازيج الهوى التي تغنى بها سليمان الحكيم كما تتلى غزليات ابن المعتز ووجدانيات ابن زيدون ؛ وإن العالم ليستمتع بها — على قِدَم العهد — كما يستمتع بروائع ذي موسلة ، وبدائع لامرتين ، وطرائف الأخطل الصغير ، وستبقى أبداً نزهة الأرواح ومتعة النفوس ما دام للناس قلوب تخفق ، وأكباد تحن ، ومُهَج تتشوّق .

وتقدير الأدب ليس بالبدعة المستحدثة في التاريخ ، فقد عرف الأقدمون له جلال القدر ورفعة المنزلة فبوّأوه حرمات التقديس . ومن البدائه المأثورة أن العرب في الجاهلية كتبت على القباطي بماء الذهب مختاراتها من روائع الشعر الحي وعلقتها بالكعبة تقديراً لها وتعظيماً .

وإن الأغريق قد كتبوا بالذهب على جدران معبد أثينا في نفوس القصيدة العصماء التي قالها بندار زعيم الشعر الغنائي في مدح دياجوراس[1]

وهل كان الملوك والأمراء يبذلون المال والهبات على الشعراء الأفذاذ بمثل ذيالك السخاء العظيم لولا طمعهم في خلود الذكر في القصائد الرنانة التي كانت على ألسنة الناس كالمثل السَّرود ؟ !

وإنها والله لصفقة خاسرة للشعر أن تشترى روائعه الخالدات بمتاع منفوق .

يروى التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال لبعض أولاد سنان ممدوح زهير بن أبي سلمى :

« أنشدني بعض مدائح زهير في أبيك » فأنشده . فقال عمر : « إنه كان ليحسن فيكم القول » فقال ابن سنان : « ونحن كنا نجزل له العطاء » . فقال عمر قوله المأثور الخالد : « قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم ! » .

ألا طيب الله ثراك يا أمير المؤمنين وكرّم مثواك . فقد زكيت

(١) تاريخ الأدب العربي للأستاذ الزيات نقلا عن لاروس .

الفن الرفيع بشهادتك الخالصة التي أدّيتها لوجه الحق مختارا. فشتان بين ما يذهب كالزبد جفاء وما يمكث في الأرض ويبقى ما كرّ الجديدان.

وبعد. فسرّ خلود الأدب قائم في كونه رسائل الأرواح في جلاء الحق والحب والخير والجمال، ومرآة تتجلى فيها سرائر النفوس ونزعات الأهواء، فهو لذلك من خصائص كل أمة في كل جيل رهفت في نفسها الأحاسيس وذكت الخواطر، وسمت الأرواح. وإن نفس كل امرئ لتظل تهفو إلى الأدب الماتع والفن الرائع ما دامت طليقة من إسار المادة وجشع الأثرة وعبودية الروح. وما ركود الأدب في عهد من عهود التاريخ إلا دليل على فقدان القيم الروحية لدى أبناء ذلك العهد المشؤوم. وما ازدهار الأدب في حقبة من الحقب إلا دليل الشعور بالكرامة، وصقل النفس، ورهف الحس، وسمو الروح والتقرب من بلوغ الكمال. فإن أعوز المصلح أن يتعرف إلى مقدار التهذيب عند شعب من الشعوب؛ وأين هو من كرم الخلق فليسبر مدى تذوق بنيه للأدب الرفيع، فقد كان الأدب الرفيع وسيبقى أبد الدهر مقياس الرقي عند الأفراد والأمم على السواء.

ولئن كانت النفوس تنزع بطبيعتها للشرور وتميل للغرور فإن الفنون — على أنواعها — كفيلة بالتلطيف من حدة النزوات وقمينة بتنمية الفضائل، وإن الأدب من الفنون بنوع خاص يصقل النفوس، ويرهف منها الأحاسيس ويحبب إليها الشهامة والإباء والعزة والنبل.

ولقد كان الخلفاء في الإسلام كما كان الملوك والأمراء في الجاهلية يوصون الآباء بتثقيف البنين الشعر والأدب لتسمو أخلاقهم وتدمث طباعهم. وقد بلغ من إعجاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب « بلامية العرب » للشنفرى الشاعر العدّاء المشهور أن قال:

« علموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلم مكارم الأخلاق ».

وقال أيضاً رضي الله عنه:

« تعلّموا الشعر فإن فيه محاسن تبتغى ».

ولله درّ من قال:

وما هو إلا القول يسري فتقتدى ... له غُرَرٌ في أوجه ومواسمُ
ولولا خلال سنها الشعر ما درى ... بناةُ المعالي كيف تبنى المكارمُ

وقال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

« الأدب حلي في الغنى، كنز عند الحاجة، عون على المروءة، مؤنس في الوحدة، تعمر به القلوب الواهية وتنفذ به الأبصار الكليلة ويدرك به الطالبون ما يحاولون ».

وقال معاوية بن أبي سفيان:

« احملوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم فما حملني على الإقامة ليلة الهدير بصفين وأنا أريد الهرب لشدة البلوى إلا أبيات عمرو بن الأطنابة التي يقول فيها:

أبت لي همتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقحامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعد عن عرض صحيح

وهل الأمجاد لولا الأدب الحي إلا أطلال؟

فلقد مرت بتاريخ البشرية عصور يذكر فيها القائح واللعنة في أثر اسمه على الأفواه، والحاكم الداهية وبسمة الامتعاض والاشمئزاز تعلو الثغور، والسياسي الأريب وأمارات النفور تبدو على الأسارير، وذلك لأن أمجاد هؤلاء جميعاً لم تقم إلا على الدم المطلول أو الوعد الممطول أو العرض المبذول، ولقد دالت هاتيك الأمجاد ولم يبق إلا مجد الأدب. ألا رحم الله ابن الرومي القائل:

« أرى الشعر يحيي الناس والمجد بالذي
تبقيه أرواح له عطرات
وما المجد لولا الشعر إلا معاهد ... وما الناس إلا أعظم نخرات »

تلكم هي منزلة الأدب في النفوس ومكانته في القلوب، وذلكم أثره البعيد في الناس.

فلا غرو إذن أن يخلد على الدهر ولا بدع أن يسلم على الزمن! وكيف لا يظل غض الإهاب بيان يمتزج فيه الناس أعراف الجنة وأنسام الخلد، ويرون فيه ربيعاً سرمدياً منضر الجنبات، منور الحواشي؛ بيان سمح ينفس عن القلب المكروب، ويروح عن الفكر المجهود، ويمتع النفس اللاغبة، ويسمو بالروح من حضيض الغبراء إلى ذرى الجوزاء ويحلق بها في دنيا غير الدنيا وعالم غير هذا العالم. دنيا زاخرة بأطياف الأماني الغرر والأحلام الوضاء. وعالم رحب الأجواء، نير الرؤى، رخي النفحات، عباق النسمات